علم النفس والإسلام

- ٢ -

للدكتور محمد مظهر سعيد
عميد الفلسفة وعلم النفس والاجتماع

الانفعالات :

بينا أن الغرائز والاستعدادات الفطرية هى القوى الدافعة للانسان فى سلوكه وتصرفاته ، التى يقوم بها لتحقيق حاجة ضرورية ·

ولكل غريزة من هذه الغرائز انفعال واضح محدود ، يظهر على الانسان كلما جد موقف يستفز الغريزة ويثيرها ، فتتميز به عن غيرها من الغرائز· وتتلون به نفسه ، ويتأثر به فى الباطن ، كما تظهر آثاره على ملامح وجهه وحركاته وصوته وتعبيراته ، وبالجملة يصطبغ به سلوكه وتصرفه مادامت الغريزة تتسلط عليه فى هذا الموقف الخاص · وفى الحديث الشريف « يكاد المريب يقول خذونى » ·

ويقول الطبيب الرازى « ولاحظ أن مايجرى فى نفس الانسان من خواطر وما يعانيه من آلام · يمكن أن يستشف من خلال الملامح الظاهرة · ويقول ابن المعتز :

تفقد مساقط لخط المريب ... فان العيون وجوه القلب
وطالع بوادره فى الكلام ... فانك تجنى ثمار القلوب

ونحن لا نستطيع وصف الشعور العاطفى للانفعال ، ويضيق المقام عن وصف مظاهره الخارجية تفصيلا ، ولكنا على كل حال نستطيع أن نعرفه فى اسمه ، فكلنا مجرب له ، خبير به · فعند الهرب من الخطر يتملكنا الخوف، وعند القتال والكفاح يظهر الغضب ، وعند النفور من الشىء الكريه يبدو الاشمئزاز أو التقزز ، وتتميز غريزة السيطرة على من هو أضعف منا وأقل مكانة ، بشعور الانسان بذاته وأنها موجودة وجودا ايجابيا فعالا مسيطرا ، فى حين تتميز غريزة الخضوع بالشعور السلبى بالذات ، فيحس الخاضع بأنه فقد ذاته وارادته أمام من يسيطر عليه ، وغريزة الاستطلاع بالتعجب من كنه الشىء الغريب الذى نستطلعه ومخالفته للمألوف، وغريزة التجمع بشعور الائتناس بالغير لمجرد الوجود معه أو بجواره ، وغريزة الوالدية بالحنو على كل صغير والحدب عليه ·

ويظهر الانفعال الغريزى بصورته الفطرية العنيفة عند الأطفال والبدائيين الذين هم فى حكم الأطفال . ولكن الانسان كلما تقدم فى السن وازدادت خبرته واتسعت مداركه وثقافته وقويت ارادته ونمت شخصيته استطاع أن يعدل فى غرائزه ويكبح جماحها ويكتم الانفعال فى نفسه ، فلا يظهر عليه شىء فى آثاره ، ينم عنه . فيكون خائفا بالفعل أو غاضبا ، ولكنه يضبط نفسه فلا تظهر عليه علائم الخوف أو الغضب ، مع أن الانفعال يتملكه من الداخل على كل حال . بل انه من حسن ايمان المرء وكمال خلقه أن يكظم غيظه فلا يدع الغضب يسيطر عليه . وفى الحديث الشريف « ليس الشديد بالصرعة ، وانما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » .

« ومن دفع غضبه دفع الله عنه أذاه » . وقال تعالى « **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** » . ويقول الامام المراغى فى تفسير كظم الغيظ : « الكاظمين الغيظ الذين حبسوا غيظهم مع امتلاء نفوسهم منه ، وصبروا على الأذى والمكروه ، فلم تظهر عليهم آثار الألم عادة ، ولم يصدر منهم أذى لمن غاظهم » وليس معنى التسامح ولين العريكة والصفح أن يتلاشى الغضب فلا يشعر به الانسان فى داخل نفسه ، ولا يظهر عليه شىء منه ، وانما معناه منع التعبير الخارجى فقط ، فالرجل الذى لا يغضب جماد لا عقل له ولا كرامة ».

العواطف :

وبحكم تطور ظروف حياة الانسان واحتكاكه بالناس والمواقف ، وخبرته لهم ، تتطور انفعالاته ونزعاته الوجدانية ، فننتظم ونأتلف حول أشخاص بعينهم أو مواقف وأشياء معينة ، حتى تصبح دعامة وجدانية قوية نبنى بها وعليها صلاتنا بالناس ، ونرتفع الى مستوى العواطف الكاملة والشخصية القوية والخلق القويم .

فالعواطف اذن ميول وجدانية مكتسبة تتكون بحكم الظروف الاجتماعية والبيئة والاختلاط بأشخاص معينين ، وليست وليدة النظرة العابرة ، والمقابلة الأولى العارضة ، أو الحب والكراهية من أول نظرة كما يقال .

ولكل عاطفة تاريخ نمو وحياة وتطور ، أو تبدأ جنينا صغيرا فى انفعال واحد ثم ينمو ويترعرع كلما انضم اليه انفعال آخر ، حتى تنضج وتكمل . وتنتظم أكبر عدد ممكن من الانفعالات ، فتصبح عاطفة كاملة كالحب أو الكراهية . وهى على هذا الاعتبار يسرى عليها ما يسرى على كل كائن حى ، فهى دائما فى حاجة الى غذاء ينميها ورعاية خاصة وعناية مستمرة . فالمحب فى حاجة دائمة الى أذكاء الحب وابقائه حيا ناميا ، والا خمدت جذوته وانطفأت ، وهرمت العاطفة واضمحلت ، وماتت ، وعادت الى لا شىء كما بدأت من لا شىء .

وقد صور شوقى رحمه الله تطور عاطفة الحب تصويرا لطيفا فى بيتين :

نظـــرة فابتسامة فســـلام فـــكلام فمـــوعد فلقـــاء
ولقـــاء يـكون فيـــه دواء وفراق يـكون فيـــه الداء

ولذلك نهى الرسول عن نظرة الفجارة ، التى تشعل الشرارة الأولى ، وأمر من سأله عنها أن يكف فلا يتبع النظرة بأخرى ، لأنها قد تثير فيه شهوة الغريزة التناسلية فى الموقف الأول ، أو اذا تكررت تعقبها صلات تؤدى الى عاطفة تورط الانسان فيما لا ضرورة له ، أو تدفعه الى الفاحشة وانشغال البال والقلب ٠

وفى الحديث الشريف «العينان تزنيان والرجلان تزنيان ، والفرج يزنى» أى أن انفعال الجوارح يؤدى الى الزنا ٠ وفى حديث آخر « لتغضن أبصاركم ولتمغظن فروجكم أو ليسكفن الله وجوهكم » ٠

الحب :

فالحب الصحيح عاطفة تنتظم فيها الانفعالات الطيبة السارة ، فيكون منها بعد اكتمالها بطول العشرة والخبرة بناء متين مركزه الشىء المحبوب ، سواء أكان هذا الشىء المحبوب شخصا أو شيئا ماديا كالمال أو فكرة معنوية كالدين أو الوطنية ٠ فالمحب يشعر نحو محبوبه أو الشىء أو المبدأ الذى يحبه ، بالخوف عليه والاشفاق والقلق اذا تعرض للخطر ، والغضب عند الاعتداء عليه ، كما يغضب لنفسه ، بل وأشد ٠ ويشعر بنفسه شعورا ايجابيا عند الاستئثار به ، والظهور أمام الناس بمظهر الجدير بهذا الحب ، ويشعر كذلك نحوه شعورا سلبيا، يتمثل فى تذلله وخضوعه له واسترضائه ويتعجب فى كل أعماله ويعجب بها ويراها بعينى الرضا حتى عند المخاصمة والاساءة ، ويشعر بالحزن لغيابه أو فقده ، والسرور ان ناله خير ، والشكر والامتنان لمن يرعاه ويحسن اليه ٠

وقد تناول الناس من قديم الزمان ، من فلاسفة وشعراء وأدباء ــ هذه العاطفة بالدرس والتحليل ، وجعلوها بحق على رأس العواطف الانسانية ، وعرضوا للصلة بين المحبين وما يربطهم من شعور متبادل ، وما يجده كل منهم فى نفسه من مشاعر وأحاسيس نحو الطرف الآخر ٠ فهذا عبد الله بن طاهر ذو الرياستين يقول فيه عندما سأله المأمون عنه : « يا أمير المؤمنين : اذا تقاومت جواهر النفوس بوصل المشاكلة انبثت منها لمحة نور تستضىء بها بواطن الأعضاء فتتحرك لاشراقها طبائع الحياة ، فيتصور من ذلك خلق خاص للنفس ، متصل بجواهرها يسمى الحب » ٠

وحقيقة النفس عند المتصوف : حالات أو أنواع من الشعور باللذة والألم وأهم ما فى ذلك الحب الذى يسمو بنا الى الله ٠ وليس هو الخوف أو الرجاء ، وليست السعادة معرفة ولا هى ارادة ، ولكنها فى الاتحاد بالمحبوب ٠

ويقول اخوان الصفا : المحبة أسمى الفضائل ، وهى المحبة التى نهايتها

الفناء فى الله ، المحبوب الأول . وتظهر هذه المحبة فى هذه الحياة نفسها على صورة الصبر المشبع بروح التقوى والرضا عن جميع الخلق » .

ويقول ابن مسكويه : « أساس الفضائل وأول الواجبات جميعا هو محبة الانسان للناس كافة ، وبديهى هذه المحبة لا تقوم جماعة قط » . ويرتب درجات المحبة ، فى موضع آخر فيقول : « أحكام الشريعة لو فهمت على وجهها الصحيح لكانت مذهبا خلقيا ، أساسه محبة الانسان للانسان . والدين رياضة خلقية لنفوس الناس . وغاية الشعائر الدينية ، كصلاة الجماعة والجمع ، هى أن تغرس الفضائل فى نفوس الناس . فهى تعلمهم محبة الجار فى أوسع صورها » . وأعلى درجات الحب عنده « محبة العبد الخالصة لله ، ومحبة الحكماء عند تلاميذهم ، وبعدها محبة الوالدين » . وليس الحب صلة بين الرجل والمرأة فحسب ، فان الصداقة نوع سام فى الحب ، فيها كل ما فى الحب المألوف من الألفة والتوافق . بل أن بعض المفكرين والفلاسفة يضعون الصداقة فوق الأخوة والقرابة والنسب . فأرسطو يراها « امتدادا من حب الانسان لذاته حتى يشمل غيره ، ومن ثم يكون الصديق الحق فى منزلة النفس .

ويقول البهاء زهير فى وصف ليلة سعيدة :

قطعتهـــا ولا تسل فى الخبر بصاحب حلو الحديث والسمر
تحضر كل راحـــة اذا حضر

ويقول الطائى :

ذو الود منى وذو القربى بمنزلة واخوتى أسوة عندى واخوانى
عصـــاية جاورت آدابهم أدبى فهم وان فرقوا فى الارض جيرانى
أرواحنا فى مكان واحد وغدت أبداننا نيشام أو خراســـان

وعن سعيد بن المسيب قال : كتب الى بعض اخوانى « وعليك باخوان الصدق فكن فى اكتسابهم ، فانهم زينة فى الرخاء ، وعدة عند تحطيم البلاء . واعتزل عدوك واحذر صـــديقك الا الأمين ، ولا أمين الا من خشى الله تعالى » .

والمثل الأعلى للصداقة يتمثل فى حب المؤمن للمؤمن ، وصداقته له ، فانها تجعلهم أخوة متحابين ، متساوين فى الحقوق ، متكافئين فى الواجبات مشبعين بروح الايثار ، والله تعالى يقول فى كتابه الكريم « **انما المؤمنون أخوة ، فاصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون** » . وفى الأحاديث الشريفة « المسلمون تتكافأ دماؤهم » . « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . وفى حديث آخر « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يعيبه ، ولا يتطاول عليه فى البنيان فيستر عنه الريح الا باذنه » .

ويقول الامام المراغى : « الايمان عقد بين أهله ، فى السبب القريب والنسب اللاحق ، وهو ان لم يفضل الاخوة ولم يبرز عليها ، لا ينقص عنها ولا يتقاصر عن غايتها » .

ومن الناس من تغريهم اللذات والمتع المادية ، فيجعلون مركز عاطفتهم شيئا ماديا كالمال أو النساء ، فتنصب حياتهم على الاكثار ، ويجدون المتعة كلها فى دوام الكسب أو الوصال . والله تعالى يقول : « **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة** » . ومن الناس من يحب المال لذاته ، وهذا بخل ممقوت وشح مذموم .

وفى الحديث الشريف : ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، واعجاب المرء بنفسه .

ويروى الغزالى عن عمر بن يحيى بن خالد بن برمك : انه كان بخيلا شديد البخل ، وله نسيب بائس . فقال له بعضهم أنت منه بهذه المنزلة وأثوابك ممزقة . فقال : انى لا أقدر على ابرة أخيطها بها ، ولو ملك محمد بيتا من بغدادالى النوبة ، مملوءا آبرا ، ثم جاء جبريل وميكائيل ويعقوب أبو يوسف يستعيرون منه ابرة يخيطون بها قميص يوسف الذى قد من دبر ، ما فعل » .

محمد مظهر سعيد
عميد الفلسفة وعلم النفس والاجتماع

أصحاب امتياز التعبئة : مصانع تعبئة سيكو - س.ت ٣٣٠٩٤